

مفكر ألماني يرثيه المسلمون ولا يفتحون كتبه

مراد هوفمان

عن الإسلام والإسلام كبديل

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

● هوفمان يعد شخصية ذات بعد عالمي، وقد نال العديد من التكريات، من بينها جائزة دبي الدولية ● تراجع العلوم عن المسلمين، بعد هيمنة الفقهاء، أمر لا يستغريه هوفمان، ويضرب مثلاً عليه بان عدد تلاميذ القرآن الكريم التي صنفته "شخصية العام الإسلامية" سلمه إياها الشيخ محمد بن راشد.

اللازمة، تلك القيود التي تكبح عادة جماع الدارسين والعاملين في المجال الديني. وهم مثل غيرهم من الشباب معرضون للتأثر بنزعة المهادنة بالإصلاحات الجزئية وتغيير شكل الحكم والبحث في شرعية النظام الحاكم بناء على قراءتهم القاصرة للدين. ما يخلق عندهم نوعاً من التعصب أكثر حدة من ذلك الذي يمكن أن يوجد لدى التقليديين.

سؤال الدولة

لا يسمح هوفمان لأحد بالتشكيك بأن الإسلام لم يطلب إقامة دولة كهنوتية مثل تلك التي نشأت في أوروبا في القرون الوسطى، بحيث يقبض رجال الدين على عالم السياسة. وهو يقول إن هذا كله لم يرد ولا حتى مرة واحدة في القرآن. ويقول بالحرف الواحد "أما إذا نسي المسلمون أن عالم السياسة هو مجال النشاط البشري الفاني وغير المعصوم، وأن الله يغفر للحكومات ولا يقيمها، وأنه ليس في الإسلام بناء هرمي للعبادة مثل ذلك الذي في المسيحية، إذا نسي المسلمون ذلك كله فقد تكون النتيجة نظاماً أحادي استبدادياً شمولياً ترتب عن قمته سلطة دينية جاهلة، فالدولة الدينية بمعناها الضيق المتعارف عليه، دولة غير إسلامية".

ولد هوفمان مطلع ثلاثينات القرن العشرين في بافاريا، وفي بداية حياته كان عضواً في منظمة شبيبية هتلر النازية، درس في ميونيخ، وفيها تعلق بالموسيقى والرقص وأسس نادياً لراقصي الباليه، وعمل محامياً قبل أن يلتحق بالعمل الدبلوماسي في خمسينات القرن الماضي، وعمل كخبير في الدفاع النووي في وزارة الخارجية الألمانية. وبعد إعلائته إسلامه وضع العديد من المؤلفات مثل "رحلة إلى مكة" و"الإسلام البديل" والعديد من المحاضرات والأبحاث الهامة التي لم تتردد في مناقشة القضايا الإشكالية في الإسلام مثل الحجاب وحقوق المرأة وغيرها.

ظل العالم الإسلامي يعد هوفمان شخصية ذات بعد خاص. وقد حصد العديد من التكريات والجوائز، من بينها جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في دورتها الثالثة عشرة التي صنفته "شخصية العام الإسلامية". وتسلمها من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الإمارات. وكان قبلها قد وقع رسالة مفتوحة إلى الزعماء الدينيين للمسيحية" مع 138 عالماً إسلامياً من جميع أنحاء العالم، بعنوان "بيننا وبينكم" أرسلت للبابا بندكت السادس عشر.

أبحاث هوفمان مفصلة وقائمة على الجدل والتفكير وحرية التحليل، وقد يجد المرء غرابة في احتفاء الإسلاميين به على عجل دون أن يفتحوا أياً من كتبه، ودون أن ينظروا ملياً في أن فكره كله قائم على البنية نقدية للعقل الإسلامي المعاصر، بقدر إقباله الكبير على الإسلام كفكر وفضاء.



وجعلهما علمين أريين. يميّز هوفمان بين أصوليات عدة، وهو يرجع الأصولية الأولى إلى مصطلح ظهر في الولايات المتحدة الأميركية لوصف المسيحيين الإنجليبيين الذين تمسكوا بحرفية الكتاب المقدس، ومثلهم اليهود الحسيديون أمثال مناحيم شنيرسون في نيويورك وفي القدس. ويذكر كيف وصل هذا المصطلح إلى وزارة الخارجية الألمانية في مؤتمرها المنعقد في يناير 1987 والذي أقرت فيه معنى الأصولية على هذا الشكل "حركة تمتثل للقواعد القانونية والقيم وأصاليب ممارسة الإسلام الأصلي عند ظهوره، كنموذج لتشكيل الحاضر، فهي أسلوب لرؤية العالم والتعامل معه". ولكن، وقبل هذا كله، كان المسلمون يطلقون هذا المصطلح على أناس آخرين، إنهم أولئك الذين التزموا بعلم الأصول وهو حقل في المعرفة بسمونه أعلى العلوم ويطلقون عليه اسم "علم القواعد". ولهذا العلم شروط كبرى كانت تتمثل في معرفة وإتقان اللغة العربية والتفاسير والأحكام والحديث والسيرة وسواها. هؤلاء الأصوليون القدامى كانت تقع على عاتقهم مسؤولية الإصلاح. وقد مروا بمراحل عديدة تغيرت فيها طبيعة تكوينهم، ولم تتغير مهامهم. لكن شروطهم بقيت ثابتة حتى جاء العصر الحديث. يحذر هوفمان من أن الأصوليين الملتزمين بالقواعد العلمية والذين يسميهم بـ"الأصوليين العقلانيين"، لا يشكلون خطراً حقيقياً على الحكومات والمجتمع، بقدر ما يشكله أولئك الذين تصدوا لمهام الإصلاح من دون أن يلبوا كافة الشروط، ويضرب مثلاً بطلاب كليات الهندسة وغيرها، ممن تلقوا العلوم الغربية في البلاد العربية والإسلامية. فهو يأقرأ كل واحد منهم القرآن متحرراً من القيود التقليدية

رفض الإسلاميين لعلوم الغرب وثقافته ومحاولتهم أسلمة المعرفة ظاهرة يقول هوفمان إنها تذكره بما فعله الألمان في الثلاثينات من القرن الماضي حين حاولوا تنقية العلوم من الآثار اليهودية

للبلدين الأخيرين مكانة خاصة حين يتحدث عن دستور علماني ظهر في كل منهما، إلا أنه يعتبر أنها جميعها نماذج فاشلة.

في المقابل يراقب صعود التيارات الإسلامية في سبعينات القرن العشرين والتي قال إنها وصفت بالمتشددة، وهو يرى أن هناك نوعاً من التزييف في المصطلح به، فغالبيتها المؤرخين يرون أنها حركات احتجاجية، بينما هي عودة للمقدس في الحياة. وهنا يرفع هوفمان صوته بالقول إن هناك الكثير من تلك الحركات حاولت استغلال الإسلام لأسباب سياسية.

لا يستغرب هوفمان من تراجع العلوم عن المسلمين، بعد هيمنة فقهاء الشريعة، فطالما كانت الفلسفة والعلوم مرفوضة عند فقهاء المسلمين، وانهوموا بلعب دور هذام، بينما أعطوا الاهتمام الكبير للعلوم الشرعية، وفي الوقت الذي كان عدد تلاميذ المدارس الثانوية في مصر لا يتجاوز خمسة آلاف، كان عدد طلاب الأزهر يصل إلى أحد عشر ألف طالب في العام 1875. هذا التيار كان قد تمكن من خلق أول مطبعة في العالم الإسلامي بعد أقل من 17 عاماً من افتتاحها وتمكن قبل ذلك أيضاً من إنهاء العمل بمركز إسطنبول الفلكي الذي عاش سنة واحدة فقط.

وكان أقسى الهجمات هجمات الغزالي ضد الفلسفة في "تهافت الفلاسفة"، ورغم أن ابن رشد رد عليه بعدها بسنوات، بكتابه "تهافت التهافت" إلا أن المسلم السنني اقتنع منذ ذلك الحين أن المعرفة الحقيقية والوحيدة والكافية هي الالتزام بما يقوله الفقهاء.

أصوليون خطرون

ما زاد الطين بلة، حسب هوفمان، التصاق المثقفين العرب بنظرائهم الغربيين، فتخلوا عن أسس حضارتهم، إذ أن الغرب من جهته يعاني من ترفيع العلوم على الآخر. بينما رفض آخرون علوم الغرب وثقافته، واعتبروها علوماً شيطانية، فأخذوا يحاولون أسلمة المعرفة. ويقول هوفمان إن هذا يذكره بما فعله الألمان في ثلاثينات القرن الماضي حين حاولوا تنقية العلوم من الآثار اليهودية وتحريم الرياضيات والفيزياء

وبحصر القسطنطينية المسيحية على يد المسيحيين اللاتين أنفسهم لا المسلمين. وصولاً إلى منتصف القرن العشرين حين صعقت الحضارة الغربية لتشكّل النموذج المتفوق تكنولوجياً وحضارياً، ويات على الناس، حسب هوفمان، أن يتخذوا من ذلك النموذج قدوة يحذون حذوها، فلا ثقافات ولا حضارات أخرى، ويات على سكان الأرض أن يرتدوا الجبن ويأكلوا الهمبرغر ويشاهدوا "سي أن أن" ويدخلوا المارلبورو. بينما تشغل العالم الإسلامي بالبحث عن أسباب تدهوره وانحطاطه.

ثلاثة أسباب جوهرية، يضعها هوفمان، تفسر الأوضاع الحالية للإسلام، أولها الضربتان اللتان تلقاهما في المغرب، وبالتحديد في الأندلس على يد الأوروبيين وفي بغداد على يد المغول، وثانيها ما طرأ على الفقه الإسلامي في القرن الرابع عشر، حين تم إغلاقه تماماً، فساد الجمود الفكري بين المسلمين. أما السبب الثالث فهو الطفرة العلمية التي شهدها العالم الغربي، والتي كان لا بد لها كي تنجح من أن تقلص من الإيمان المسيحي ذاته ولم يكن الأمر موجهاً ضد دين معين.

أصبح العالم في القرن التاسع عشر عالماً بلا إله، كما يروي هوفمان، وظهر ماركس وفرويد وراسل، وساد المذهب داروين وفرويد وإراسل، وساد المذهب الكمي الذي لا يعترف إلا بما يمكن قياسه، ويات فكرة أن يكون هناك إله في الكون "مجرد احتمال". وهكذا دخلنا إلى القرن العشرين والناس تعبد إلهة أخرى غير ذلك الإله، إنها القوة والمال والجنس والجمال والشعبية. وهنا يتساءل هوفمان مع غيره ممن وقفوا عند تلك التحولات: ماذا أصاب الإسلام؟ فجيبي بسرعة "إن الذي أصاب الإسلام هو ما أصاب الغرب".

غير أن نجاح الرأسمالية العالمية الساحق، أخذ، بداية من ستينات القرن الماضي وسبعيناته، يقوض الأساس الأخلاقي للرأسمالية ذاتها، ذلك الأساس الذي وضعه ماكس فيبر مستمداً إياه من البروتستانتية. ليبدأ عصر التدمير الذاتي من داخل المنظومة ذاتها. يدلل هوفمان على ذلك الانهيار بالتحويلات التي طرأت على الدلالات في لغة العالم الغربي، فأصبحت الفردية نرجسية، والأخوة اجتماعاً على الحفلات، والتحرر فسقا، والحرية الشخصية فوضى أخلاقية، والتسامح إلى نساو ما بين الخير والشر، والتنافس إلى جنون الاستهلاك، والمرونة إلى كراهية التقليد. فأخذت المجتمعات الصناعية تواجه نوعاً من الخلل تجسده الجماعات الراضية للمجتمع التي تبحث عن نظام بديل لذلك الذي أعطاهها الحرية والرفاه. فهي، كما يرى هوفمان، تفقد الأمان وتورقها التكنولوجيا المفرطة وتاليه العقل والردع النووي.

استغلال الإسلام

في كثير من مفاصل شغل هوفمان على "الإسلام البديل" نراه يلاحق التاريخ، ليكون الدليل الذي يتخذه هوفمان على صحة نظريته. فقد كان ردّ الغرب على انتشار الإسلام، بالحروب "الصليبية"

قبل أيام معدودة رحل عن عالمنا مراد ويلفريد هوفمان الذي ظلت حياته وأفكاره منار جدل وتساؤلات للكثيرين. البعض تعجب من إقبال هوفمان الكاثوليكي الألماني والدبلوماسي المخضرم على الإسلام في ظل تصاعد الحركات الإسلامية المتشددة، وهو الذي أعلن اعتناقه لدينه الجديد في خريف العام 1980. والبعض الآخر رأى في ظهور هوفمان تكراراً لشبهه وولادة مستشرق جديد يلامس الحياة والفكر الإسلاميين من بعيد دون أن يتعمس في إشكالياتهما التي لم تجد حلاً بعد بين المسلمين أنفسهم.

ورغم مرور عقود طويلة على نهاية الحرب العالمية الثانية، إلا أن الألمان ما زالوا يكربون مقولة رئيس الوزراء البريطاني الأسبق تشرشل عن الديمقراطية، وعن كونها "أسوأ أشكال الحكم، باستثناء كل الأشكال الأخرى التي تمت تجربتها"، مبررين بذلك مسأوء النظام الديمقراطي. غير أنهم يعتبرونه أفضل السبب. هوفمان، بدوره، انطلق في رحلته نحو الإسلام من تلك النقطة، فهو يرفض الاعتراف بأن الديمقراطية الغربية هي أفضل ما أنتجته البشرية، مضيفاً إلى ما يرفضه "العلمانية والرأسمالية" في الوقت ذاته.

تبتنا هوفمان بأن القرن الحالي، وقد كتب نبوءته تلك قبل سنوات من انقلاب اللفية، هو قرن إسلامي بجدارة وسوف ينبعث من أوروبا. لكن كيف؟

فهم جديد للإسلام

شكل كتابه "الإسلام كبديل" نوعاً من الصدمة للجمهور الألماني، فهو هوفمان يؤكد في مقدمته التي وضعها في مدينة الرباط بالمغرب، أن العالم نظر إلى الإسلام كطريق قائمة بين الرأسمالية والشويعية أيام الحرب الباردة، لكنه اليوم البديل للنظام الغربي برمته. وهو ليس واحداً من البدائل للعصر ما بعد الصناعي الغربي، بل هو البديل الأوضح على حد قول هوفمان.

هوفمان يحذر من نوع من الأصوليين الذين تصدوا لمهام أن يلبوا الشروط كافة فهو يأقرأ كل واحد منهم القرآن متحرراً من القيود التقليدية اللازمة التي تكبح عادة جماع الدارسين والعاملين في المجال الديني

رؤية هوفمان للإسلام، تصفها المستشرقة الألمانية القديرة أنا ماريا شميل، بأنها أقرب إلى رؤية الشاعر والفيلسوف الباكستاني محمد إقبال، من حيث كونها دعوة لتجديد فهم الإسلام وأفكاره، بعيداً عن التشدد الذي حاربه آخرون يشبهون تجربة هوفمان مثل فضل الرحمن وسواه.

وكثيراً ما ينتقد هوفمان الغرب لأنه نظر إلى الإسلام على أنه دين انتشر بالسيف، بسبب رسائل النبي محمد إلى هرقل وبسبب الغزوات والحروب في بلاد الشام ثم بعد حين حصار القسطنطينية، ويتهم الغرب بأنه بُعث فكرته عن الإسلام عند تلك اللحظة وعلى تلك الهيئة. غير أن هوفمان يتسامح مع كون تلك الفكرة ليست حكرًا على الغربيين وحدهم، بل إن غالبية من المسلمين ترى هذا، وتعتقد أن السيف أسبق من الفكر في انتشار العقيدة.

في كثير من مفاصل شغل هوفمان على "الإسلام البديل" نراه يلاحق التاريخ، ليكون الدليل الذي يتخذه هوفمان على صحة نظريته. فقد كان ردّ الغرب على انتشار الإسلام، بالحروب "الصليبية"